جهاد الإمام ساموري توري في غرب افريقيا

في النصف الثاني من القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر الهجريين

" النصف الثاني للقرن التاسع عشر الميلادي "

للدكتور

محمد محمود السروجي

أستاذ الدراسات العليا - تاريخ إسلامي حديث

كلية العلوم الاجتماعية

بسم الله الرحمن الرحيم

«وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ»

صدق الله العظيم

كانت الأوضاع الدولية مواتية للدول الأوربية الكبرى فى أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر الهجريين/ النصف الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى لحركة التوسع الاستعمارى، فمعاهدة برلين عام ١٢٨٧ هـ /١٨٧٨م قد وجهت النشاط الاستعمارى لتلك الدول نحو القارتين الآسيوية والأفريقية، وأعقبة مؤتمر برلين عام ١٣٠٢ هـ/١٨٨٤م لينظم هذا النشاط لاسيما فى المجال الأفريقى. ومن ثم وقعت الشعوب الآسيوية والأفريقية تحت ضغط استعمارى منظم من قبل تلك الدول منذ ذلك الحين[١].

ولقد ساعدت الأحوال الاقتصادية فى أوربا، مثل زيادة الانتاج الصناعى الكبير، وإتباع سياسة حماية التجارة منذ عام ١٨٧٠، وتطور وسائل المواصلات ساعد كل ذلك على تقدم الحركة التجارية. بالاضافة إلى تشبع السوق الاوربية برؤوس الأموال، مما دعا الدول الاوربية الى محاولة البحث عن أسواق خارجية لاستثمار تلك الأموال الفائضة.

هذا فضلا عما قام به رجال الجيش والبحرية للدول الاوربية الكبرى من أعمال فى بعض الأقطار البعيدة فى آسيا وأفريقيا لدفع عجلة الاستعمار قدما إلى الأمام. كما لا ننسى ما دونه بعض الكتاب المنادين بفكرة الامبراطورية من كتابات كان لها بعض الأثر فى نمو تلك الفكرة فى المجتمع الأوربى. كل تلك الأسباب كانت من الدوافع الهامة لدول أوربا على المضى فى طريق السيطرة والفتح.

(١) السروجى ، محمد محمود ، تاريخ أوربا الدبلوماسى ص ٩٦

زد على ذلك نظرة الدول الأوربية الكبرى للاستعمار على أنه مسألة هيبة وكرامة[٢]، أو مسألة أمن، أو للاكتفاء الذاتى[٣].

ونجحت بريطانيا فى استغلال أوضاعها الداخلية والخارجية لتصبح فى أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر الهجريين/ أواخر القرن التاسع عشر الميلادى أولى الدول الاستعمارية دون منازع، وتبعتها فرنسا فى هذا المضمار. والتاريخ الانجليزى حافل بكبار الكتاب والمفكرين الذين تغنوا بالاستعمار، من أمثال كارليل Carlyle وكنجسلى Kingsley ورسكن Ruskin وتنيسون Tennyson ، وكانت لكتابات هؤلاء - دون شك أثرها على رجال السياسة وعلى الشعب الانجليزى نفسه.

دخلت فرنسا فى مضمار التسابق الاستعمارى إلى جانب بريطانيا، ولكنها أصيبت بنكسة مؤقتة عقب هزيمتها أمام بروسيا فى الحرب البروسية الفرنسية عام ١٢٨٧ هـ/ ١٨٧٠م والتى كان من نتيجتها انتزاع اقليمى الألزاس واللورين من فرنسا وضمها لألمانيا. فالهزيمة إذاً قد أوقفت النشاط الاستعمارى الفرنسى بعض الوقت، ولكنها لم تستطع القضاء عليه. وتمكنت فرنسا - بسرعة أذهلت دول أوربا - من النهوض ومن استرجاع قوتها وهيبتها. ولذا وجدت المانيا بعد أن حققت وحدتها أن من الحكمة استرضاء فرنسا حتى لا تفكر فى شن حرب انتقامية ضدها لاستعادة الألزاس واللورين والثأر لهزيمتها، فاتبعت (المانيا) إزاء فرنسا سياسة جديدة عرفت باسم سياسة الاستصلاح والتعويض، وهى تقوم على استرضاء الدول الأوربية الكبرى ومنها فرنسا على حساب ممتلكات الدولة العثمانية. فلم يكن لدى المانيا مانع من أن تحتل فرنسا تونس[٤] لو أرادت بشرط ألا تفكر فى الحرب ضدها[٥].

---

(٢) وردت هذه الجملة فى خطبه لدزريلى رئيس وزراء بريطانيا ألقاها فى Crystal Palace.

(٣) Langer, Diplmacy of Imperialism, P. 68.

(٤) كانت فرنسا تتطلع الى احتلال تونس منذ أن توطدت أقدامها فى الجزائر، وتخشى أن تسبقها ايطاليا الى هذا العمل.

(٥) السروجى، محمد محمود، العلاقات التونسية الفرنسية من الحماية الى الاستقلال ص ٨٣.

كما أن بريطانيا كذلك قد ساعدت فرنسا على التوسع فى أفريقيا، وذلك لاستعادة قوتها وهيبتها كدولة كبرى حفظا للتوازن الاوربى، لاسيا بعد أن ازدادت قوة ألمانيا زيادة كبيرة فى أوربا، مما هدد المصالح الانجليزية بالخطر.

ثم جاء مؤتمر برلين عام ١٣٠٢ هـ /١٨٨٤م - كما أشرنا آنفا - لينظم استعمار افريقيا، فاندفعت فرنسا بكل قوتها للتوسع فى غرب أفريقيا بعد أن وطدت أقدامها فى تونس بفرض الحماية عليها عام ١٢٩٩ هـ /١٨٨١م.

واجهت فرنسا عقبتين فى سبيل بسط سيطرتها على غرب أفريقيا: العقبة الأولى تتمثل فى الوجود الأوربى فى بعض تلك المناطق، فكان للبرتغال وبريطانيا وألمانيا ممتلكات فيها. ورغم ذلك فهذه العقبة ليست عسيرة الحل، فمن الممكن الاتفاق فيما بينها على تحديد مناطق نفوذها طبقا لبنود معاهدة برلين ١٣٠٢ هـ/١٨٨٤م.
أما العقبة الثانية فهى أخطر العقبتين، وقد تمثلت فى المقاومة العنيفة التى واجهتها فرنسا من قبل الممالك الإسلامية حكاما وشعوبا، مثل حركة المقاومة التى قادها كل من الحاج عمر تال[٦]، وأحمدو شيخو[٧]، وساموري توري، ورابح الزبير، وقد انهكت حركات

(٦) ولد الحاج عمر تال باحدى قرى السنغال عام ١١ - ١٢١٢ هـ/١٧٩٧م وتلقى ثقافته الدينية على يدى أحد شيوخ المرابطين وأصبح الخليفة للطريقة التيجانية فى أفريقيا، وأسس دولة التكرور (التوكولور)، وعمل على نشر الإسلام بين القبائل الوثنية فى غرب أفريقية بالقوة وامتد سلطانه على السودان الغربى من السنغال حتى تمبكتو فى أعالى النيجر، وبعد وفاته ٨٠ - ١٢٨١ هـ/١٨٦٤م ورث الحكم ابنه أحمدو شيخو.

(٧) أحمدو شيخو هو ابن الحاج عمر تال ووريث ملكه، أشركه والده فى ادارة ملكه قبل وفاته، وورث أيضا خلافة الطريقة التيجانية فى غرب أفريقية. واجهته مشكلة تفكك الدولة بعد وفاة والده وطمع أشقائه وحكام الأقاليم فى الاستقلال بحكمها. وفى عام ٨٤ - ١٢٨٥ هـ/١٨٦٨م لقب نفسه بأمير المؤمنين. وكان عليه ايقاف تغلغل الفرنسيين فى غرب أفريقية. وقد أرسلت فرنسا العديد من الحملات ضده، كما عقدت معه العديد من المعاهدات، وقد تعاون معه الإمام ساموري تعاونا محدودا، ولكن محمدو الأمين كان يناصبه العداء. ونتيجة لتفكك حكام المسلمين وعدم تضامنهم وقع أمير المؤمنين معاهدة مع فرنسا فى عام ١٣٠٤ هـ/١٨٨٧م يضع بمقتضاها بلاده تحت الحماية الفرنسية. ولم يهدأ للفرنسيين بال إلا بعد أن وجهوا اليه ثلاث حملات أرغمته على ترك بلاده والالتجاء الى مملكة سوكوتو عام ٥ - ١٣١٦ هـ/١٨٩٨م حيث توفى فى نفس العام.

المقاومة هذه قوى فرنسا، وكبدتها خسائر كبيرة، رغم الفارق الكبير بين القوتين فى العدد والعدة.

ولن أتعرض فى هذا البحث إلا لموقف ساموری توری وشعبه وجهادهم ضد تقدم الفرنسيين فى ممتلكاتهم بمنطقة النيجر الأعلى، تلك المملكة التى كونها من شعب الماندنجو Mandingu أو الماندى[٨] .

وما دفعنى للكتابة فى هذا الموضوع إلا عزوف كثيرين من المؤرخين عن إلقاء الضوء على هذه الشخصية الإسلامية الكبيرة وذلك لسببين جوهريين: الأول، ندرة - إن لم يكن انعدام ما كتب عنه باللغة العربية، والثانى لتعذر الحصول على المصادر الفرنسية الأصلية التى كتبت عنه سواء بتحامل أو بانصاف. أضف إلى ذلك أنه لم ينل حظا من الشهرة مثلما حظى بعض الزعماء الأفارقة المصلحين الآخرين مثل عثمان بن فودى[٩]، والحاج عمر تال ورابح الزبير، مع أن مقاومة هؤلاء للتغلغل الأجنبى فى غرب أفريقيا لم تصل فى قوتها ولا فى حدتها ما وصلت اليه مقاومة الإمام ساموری توری. هذا فضلا عن جهاده فى نشر الإسلام.

وقبل أن ندخل فى تفاصيل حركة الجهاد التى أعلنها الإمام ساموری ضد التغلغل الفرنسى فى غرب القارة الافريقية وهو أكبر خطر كان يتهدد الإسلام والمسلمين، يجدر بنا أن نلم إلمامه سريعة بنشأة هذا المجاهد المسلم الكبير، وبطبيعة دولته، وبنظمها الإسلامية القوية.

---

(٨) Fage, J. D., A history of West Africa, P 157

(٩) عثمان بن فودى (دان فوديو) ولد عام ١١٦٩ هـ/ ٤ - ١٧٥٥م فى قرية طفل من أعمال إمارة جوبير بغرب أفريقية من أسرة من الفلان. وتربى تربية دينية وأدى فريضة الحج وتأثر بالدعوة السلفية ابان دخول الحجاز ضمن حدود الدولة السعودية الأولى. وعندما عاد الى بلاده حمل لواء الدعوة السلفية عام ١٢١٥ هـ/١٨٠٠ -١٨٠١م، وعمل على تخليص بلاد الحوصة من مظاهر الشرك والوثنية وتطهير الدين الإسلامى الحنيف من البدع والخرافات، والقضاء على الوثنية، وأقام دولة إسلامية من جميع امارات الحوصة القديمة وتوفى عام ١٢٣٣ هـ/١٨١٧م، وخلفه ابنه أمير المؤمنين محمد بللو.

ولد الإمام ساموری توری فیا بین عامی ١٢٤٦ و ١٢٥١ هـ/١٨٣٠م و ١٨٣٥ م على أرجح الأقوال فى بلدة[١٠] سانانكورو Sanankoro وتقع فى أعالى حوض نهر ميلو Milo أحد روافد نهر النيجر. تلقى التعليم الدينى فى صغره على يدى والده، حتى إذا ما شب عن الطوق تعهده أحد شيوخ المرابطين بالرعاية والتعليم[١١].

ويقال بأن ميلــه للحرب والقتال قد ظهــر نتيجة حادث وقع لأمه علم ١٢٦٩ هـ/١٨٥١م، حيث وقعت فى أسر أحد الزعماء الأفارقة. وكان على ساموری لكى يفتدى أمه أن يخدم فى جيش هذا الزعيم فترة معينة من الزمن. وفى خلالها ظهرت موهبته العسكرية كمحارب لا يشق له غبار، وهذا ما حمله على احتراف الجندية بعد انقضاء خدمته لدى هذا الزعيم[١٢].

جمع الإمام ساموری توری من صفات الزعامة والقيادة ما يؤهله لتكوين دولة إسلامية كبيرة ذات صبغة عسكرية، تقوم على مبدأ[١٣] الجهاد. فهـو زعيـم مهـاب الجانب، ومسلم يؤمن بالإسلام دينا وشريعة ومنهج حياة، ويؤمن أيضا بالجهاد كفرض على كل مسلم لاعلاء كلمة الله، وتطهير غرب أفريقيا من رجس الوثنية التى ظلت بقاياها موجودة فى بلاد الحوصة حتى القرن الثالث عشر الهجرى/ التاسع عشر الميلادى، ومن تسلط الفرنسيين وغيرهم من الأوربيين الذين يعملون للقضاء على الإسلام، ونشر المسيحية فى ربوع أفريقيا.

فالإمام ساموری توری ـ كما اعترف بذلك أعداؤه قبل أصدقائه ـ قد تمتع بقدرات عسكرية وسياسية فذة، فقد عرفه الفرنسيون كرجل حرب وتخطيط من طراز فريد. ولذا حق لبيروز Peroz - وهو من كبار العسكريين الفرنسيين ـ أن يلقبه بـ «نابليون السودان»

---

(١٠) Labouret, H., L'Afrique precolonial, vol .VI.P 68.

(١١) ذهنى، الهام محمد على، التغلغل الفرنسى فى النيجر وموقف الوطنيين ص ١٣٠.

(١٢) Schnerb, R., Histoire generale de L'Afrique, Tome II.

(١٣) Deschamps, H., Histoire generale de L'Afrique. Tome II P. 111

نسبة الى نابليون بونابرت وهو من أعظم العبقريات العسكرية فى القرن الثالث عشر الهجرى/ التاسع عشر الميلادى.

وقد وجد الإمام ساموري فى منطقة النيجر الأعلى المكان الملائم لانشاء تلك الدولة، واتخذ من بلدة بساندوجو Bissandougou. عاصمة لملكه[١٤] ونقطة ارتكاز للتوسع فيما حولها. ونظرا لأن دولته ستقوم على مبدأ الجهاد فكان لزاما عليه أن يهتم بإيجاد جيش قوى، يعتمد على موارد مالية ثابتة، ولن يتحقق له ذلك إلا بإنشاء دولة منظمة، ذات اقتصاد قوى ومتين. ولذا فقد عنى بتنظيم شئون الدولة، وبتشجيع حركة التجارة، وباستغلال مصادر الثروة المعدنية فيها، وإيجاد علاقات طيبة مع جيرانه الانجليز، حتى لا يضطر الى الحرب فى جبهتين فى وقت واحد. وكذلك الاستفادة من التنافس بينهم وبين الفرنسيين لشراء ما يحتاج إليه، ولاسيما الأسلحة من الانجليز.

أما عن الجيش، وهو موضع الاهتمام الأول بالنسبة للإمام، فقد تم تقسيمه الى ثلاثة أقسام، لكل واحد منها مهمته الخاصة المنوط بها.

فالقسم الأول وهو الأكثر عددا والأفضل تسليحا فقد خصص لمحاربة الفرنسيين ومنعهم من التوغل داخل البلاد دفاعا عن الإسلام والمسلمين. والقسم الثانى كانت مهمته حفظ الأمن والنظام فى الداخل وحماية المواطنين.

أما القسم الثالث والأخير فقد وقع على كاهله مهمة التوسع والفتح وضم الأراضى الجديدة إلى حظيرة الدولة، تحقيقا لهدف الدولة الأساسى فى نشر الإسلام والقضاء على الوثنية، ومحاربة المنحرفين عن العقيدة الإسلامية الصحيحة.

وقد حرص الإمام على تزويد جيشه بأحدث الأسلحة المتطورة فى ذلك الوقت، إدراكا

---

(١٤) ذهنى، المرجع السابق ص ١٣٠

منه لخطورة العدو الذى يواجهه ألا وهو فرنسا. بل لقد بلغ هذا الحرص درجة مكنته من تصنيع بعض الأسلحة وقطع الغيار محليا.(١٥)

ومما يثير دهشة الباحث وإعجابه أن يضع الإمام لهذا الجيش تنظيما دقيقا يمكنه من تحقيق هدفيه الرئيسيين فى وقت واحد، وهما الجهاد فى سبيل الله، والعمل على تنمية موارد الدولة. فنظرا لأن الدولة تكاد تكون فى حرب مستمرة مع الفرنسيين من جهة ومع الوثنيين من جهة أخرى، فان مدة التجنيد أصبحت غير محددة. ولذا كان من الأهمية بمكان إيجاد نظام يسمح للجنود بالتفرغ بعض الوقت لممارسة الزراعة، مع عدم الإخلال بالواجبات العسكرية.

ففى أوقات السلم كانت تسرح القوات الاحتياطية مدة ستة شهور، تعمل خلالها فى فلاحة الأرض والقيام بما تحتاجه القرية من خدمات، على أن يعرضوا أنفسهم على إدارة الجيش فى نهاية تلك المدة لترى ما إذا كانت فى حاجة إليهم أم أن تسمح لهم بالعودة الى قراهم فترة أخرى(١٦). وكانت كل قرية تخصص جانبا من أراضيها لزراعة ما يفى حاجة الجيش من محاصيل.

أما عن طريقة جمع هؤلاء الجنود فقد فرض على زعيم كل قرية أن يزود الجيش بالشبان الصالحين للجندية فى قريته كلما دعت الحاجة لذلك. ويمكن القول بأن هذا الجيش قد اعتمد أساسا على جنود السوفا.

ومن ناحية نظام الحكم فى الدولة فقد قسمت الدولة الى مائة واثنين وستين اقليما اداريا، وكل واحد منها يضم ما يقرب من عشرين قرية، وعلى رأس كل منها زعيم وفوق هؤلاء جميعا يأتى حاكم الأقليم الذى يقوم الإمام ساموري بتعيينه. وفى قمة هذا النظام الأبوى الإمام، وتنحصر مهمته الأساسية فى العمل على تقوية الدولة والمحافظة عليها، ونشر الدين الإسلامى، والقضاء على الوثنية بمختلف صورها وأشكالها.

(١٥) Crowder, M, West Africa under colonial rule, P .86

(١٦) Hargreaves, J., France in West Africa, P 140.

وكانت موارد الدولة المالية تعتمد على ثروة الإمام الخاصة، وعلى ما يرد إليه من هدايا، ومن تجارة الذهب، ومن فدية الاسرى. هذا بالاضافة إلى الحاصلات الزراعية التى ترد من القرى لتموين الجيش. وكان الجزء الأكبر من تلك الموارد ينفق فى شراء الأسلحة الحديثة من مدينة فريتون بسيراليون(١٧).

وقد نال التعليم الدينى عناية خاصة فى الدولة الجديدة؛ فالدولة لا تقوم على السيف وحده، ولكن يجب أن يحتل القلم مكانه بجانب السيف، ولذا فقد أكثر من بناء المدارس الخاصة بتحفيظ القرآن الكريم، وتعليم الناس أصول دينهم ودنياهم. وإلى جوار المدرسة أنشأ العديد من المساجد - لاسيا فى المناطق التى تحررت من ربق الوثنية - وزودها بالأئمة والوعاظ المستنيرين لتعريف الناس أمور دينهم على الوجه الصحيح.

أما التجارة فقد استحوزت على قسط كبير من إهتام الإمام؛ فالتجارة هى عصب الحياة بالنسبة للدولة، ولاسيا التجارة الخارجية فعن طريقها يمكنه الحصول على ما يريد من أسلحة حديثة للدفاع عن الدولة ضد أعدائها فى الداخل والخارج. ولهذا السبب حرص على إيجاد علاقة طيبة مع جيرانه البريطانيين فى سيراليون ساعدته فى عقد اتفاقات تجارية مع تجار ميناء فريتون، وهو من أهم الموانى لبيع الأسلحة - لمصلحة الطرفين(١٨).

بل أن الإمام ساموري توري ذهب فى علاقته مع حكام سيراليون الى حد محاولته استغلال التنافس الاستعمارى بين الانجليز والفرنسيين فى غرب أفريقيا لصالحه، فاتصل بهؤلاء الحكام بهدف توطيد روابط الصداقة بين البلدين وأسفر هذا التقارب بين الطرفين عن اتفاق يخول للبريطانيين القيام بمشروع مد خط حديدى يربط مملكة الإمام ساموري بسيراليون، فى مقابل ضمان تجارة الإمام مع ميناء فريتون. ولكن لم يكتب لهذا المشروع النجاح، وذلك لمعارضة فرنسا الشديدة له(١٩).

---

(١٧) ذهنى ، المرجع السابق ص ١٣٢

(١٨) Hargreaves, J., Op. cit. P. 245.

(١٩) Gann, L., Colonlialism in Africa , Vol .I P 209.

ولم تسكت الحكومة الفرنسية على بيع تجار فريتون الأسلحة الحديثة للإمام فاحتج وادنجتون السفير الفرنسى فى لندن لدى اللورد سولسبرى فى ٦ نوفمبر ١٨٩١ على بيع البيوت التجارية الانجليزية الأسلحة السريعة الطلقات والذخيرة لساموري، وطلبت وقف تلك التجارة بأسرع ما يمكن[٢٠].

وانعكس موقف فرنسا هذا على الحاكم البريطانى لساحل الذهب، إذ رفض الدخول فى علاقات تجارية مع الإمام ساموري حتى لا يغضب الحكومة الفرنسية، ويتسبب فى تعكير صفو العلاقات البريطانية الفرنسية[٢١].

من هذا العرض الموجز لتكوين دولة الإمام ساموري، ونظام الحكم فيها نجد أن الدولة كانت ذات طبيعة عسكرية فى المقام الأول، ولم يدخر الإمام وسعا فى تسخير كل امكاناتها المادية والبشرية لتستمر راية الجهاد مرفوعة والإسلام منتشرا، وخالصا من كل شائبة. فحركته الاصلاحية من هذه الناحية تعتبر امتدادا لحركة الفلان الاصلاحية التي قام بها عثمان بن فودى والحاج عمر تال فى مطلع القرن الثالث عشر الهجرى/ التاسع عشر الميلادى.

جهاد الإمام ساموري ضد فرنسا :

شعر الإمام ساموري بالخطر نتيجة لتحركات القوات الفرنسية المريبة فى غرب أفريقيا، وأيقن أن الحرب لابد واقعة بينهما لا محالة رغم ما تظهره له فرنسا من ود زائف، واقتنع منذ بداية الأمر أن حربه معها هى حرب حضارية أولا وقبل كل شئ.[٢٢] وأن انتصار فرنسا معناه القضاء على الدين الإسلامى والحضارة الإسلامية، وفتح باب التنصير للمسيحية على مصراعيه. ولذا فالحرب بين الطرفين قد اتخذت طابع الجهاد .

(٢٠) Documents Diplomatiques Francaise, ler serie. T. IX p. 92.

(٢١) D. D. F. ler serie T. IX p. 365

(٢٢) Johnston, H., A history of Colonization of Africa, P. 204

كما أدرك أيضا أن الحرب ستكون طويلة الأمد، وشديدة المراس، نظرا لعدم تكافؤ القوتين من ناحية العدد والعدة. ولكنه كان يؤمن إيمانا راسخا بأنه على حق، وعدوه على باطل، فإذا ما انتصر فقد انتصر لدينه وعـــرضه ووطنه، وإذا ما قتل فجزاؤه جزاء الصديقين والشهداء. هذا هو موقفه الذى عاهد الله عليه، ومات فى سبيله.

أما موقف أعدائه الفرنسيين، فكما ذكرنا آنفا بأن خروج فرنسا من الحرب السبعينية تجر أذيال الهزيمة والعار قد دفعها الى محاولة استعادة هيبتها، وذلك عن طريق كسب انتصارات فى غرب أفريقيا تعوضهـا عما فقدته فى الأرض الأوروبيـة، خصوصا وأن الأوضاع الدولية التى أعقبت مؤتمر برلين عام ١٨٨٤ كانت مواتية لها.

وقد استخدمت فرنسا فى سبيل تحقيق هذا الهدف مختلف الوسائل، فهى فى صراعها مع الإمام ساموري قد لجأت للحرب حينا، فإذا لم تسعفها الحرب لجأت للخديعة. وفى كلتا الحالتين كانت تستخدم سياسة (فرق تسد) لضرب الزعماء والحكام الأفارقة بعضهم ببعض حتى لا تجتمع كلمتهم على مقاومتها. وأسوأ ما تخشاه فرنسا فى ذلك الوقت هو الحادهم وتآزرهم ضد أطماعها ومخططاتها الاستعمارية فى غرب أفريقيا. ولذا فقد بذلت قصارى جهدها حتى لا يلتئم شملهم فى يوم من الأيام. وهؤلاء الزعماء والحكام الأفارقة هم الإمام ساموري توري، وتييبا Tieba حاكم كندوجو Kenedougou وعدو ساموري اللدود، وأمير المؤمنين أحمدو شيخو حاكم سيجو، ومحمدو الأمين[٢٣] حاكم سنغمبيا.

وقد أدركت فرنسا منذ البداية أن إطلاق يدها فى غرب أفريقيـا لن يتحقق إلا بالقضاء على قوة الإمام ساموري، لأنها تمثل العقبة الحقيقيـة أمام تقدمهـا فى تلك

(٢٣) محمدو الأمين أنشأ دولة إسلامية عسكرية فى سنغمبيا فى أ ـ١٣٠٢ هـ/١٨٨٥، وعمل على إحياء الدين الإسلامى وإعادة مجده، ورغم معاداته للفرنسيين فانه لم يتعاون مع الحكام المسلمين المعاصرين له فى دفع خطرهم، لوقف فى وجه عثمان بن فودى وناصب أحمد شيخو العداء . دخل فى معارك عديدة مع الفرنسيين الى ان قتل بيد من لجأ الى حمايته فى ١٣٠٥ هـ/١٠ ديسمبر ١٨٨٧م.

البلاد[٢٤]. ولذا أخذت تتحين الفرص للتدخل بصفة مشروعة لضرب الإمام، وقد واتتها تلك الفرصة حينما استنجد بها حاكم بلدة كنييرا Keniera الواقعة فى النيجر الأعلى لانقاذ بلدته من حصار قوات الإمام.

لم تتردد السلطات الفرنسية فى إرسال أحد ضباطها للإمام بحجة التفاوض معه لرفع الحصار عن البلدة، ولكن الإمام رفض ذلك، فاتخذ الفرنسيون من هذا الموقف ذريعة للتدخل العسكرى تحت قيادة ديبورد، ولكنهم لم يظهروا نيتهم فى الحرب، بل أعلنوا بأن الحملة هدفها زيارة بعض الزعماء الأفارقة، ولكن هذه الحيلة لم تنطل على الإمام فهاجمها وحدثت بين الطرفين أكثر من معركة كان من نتيجتها تكبد الفرنسيين الكثير من الخسائر، مما اضطرهم الى الانسحاب[٢٥].

ويبدو أن هذا الصدام المسلح كانت تهدف فرنسا من ورائه اختبار مدى قوة الإمام، حتى تستطيع أن تحشد له من الجيوش ما يمكنها من التغلب عليه. وما درت فرنسا أن هذا الصدام هو بداية طريق طويل وشاق اجتازته قواتها فى ثلاثة عشر عاما، الى أن استطاعت أن تضع نهاية لهذه الحرب الضروس بعد أن تكبدت خسائر فادحة فى النفس والمال[٢٦].

ونظرا للعداء الشديد الذى استعر أواره بين الإمام ساموري وبين جاره تييبا حاكم كندوجو المسلم، أن لجأ الأخير إلى الارتماء فى أحضان فرنسا وأن يصبح الحليف المخلص لها[٢٧]، والمنفذ لسياستها وخططها التوسعية، تأمينا لمركزه وسعيا وراء القضاء على قوة عدوه الإمام سامورى.

(٢٤) Ambriere, F., Les guides blues de L'Afrique Occidentale Francaies p. 94.

(٢٥) Gann, L., Op. cit. vol. I, p. 204

(٢٦) Crowder, M., Op. cit. p. 89.

(٢٧) Guernier, E., Afrique Occidentale Francaies, Tome I, p 59

لقد كان تيبيا ـ فى حقيقة الأمر ـ يمثل خطرا دائما على الإمام ساموری، فكثيرا ما لجأت فرنسا فى تقدمها نحو ممتلكات الإمام إلى تحريك قوات تيبيا فى الوقت نفسه،لتضع قوات الإمام باستمرار بين شقى رحى[٢٨]، وعندئذ يضطر الإمام إلى تقسيم قواته قسمين: أحدها لمواجهة قوات فرنسا، والقسم الآخر لمواجهة قوات تيبيا، وكان يترتب على ذلك إضعاف قوة الإمام وتشتيتها. وهذا ما كان الإمام يعمل جاهدا على تلافيه.

وبلغ من محاولة فرنسا توثيق صلتها بتيبيا إلى حد إغرائه بترك الدين الإسلامى والدخول فى المسيحية ظنا منها بأن تيبيا أقل تمسكا بإسلامه من الإمام. وأن شدة عدائه له ربما دفعته إلى إرضاء فرنسا واعتناق المسيحية، ولكنها فشلت فى ذلك.

ويمكننا أن نقسم حركة الجهاد ضد فرنسا إلى ثلاث مراحل:
فى المرحلة الأولى كانت خطة فرنسا تهدف إلى تطهير الضفة اليسرى لنهر النيجر من قوات الإمام ساموری وحصرها فى الضفة اليمنى توطئة للقضاء عليها بعد ذلك.[٢٩] وكانت هذه الخطة تقابل بمعارضة شديدة من قبل الإمام، فلم يقبل بتدخل الفرنسيين فى النيجر بأية صورة من الصور، ولا تحت أى ذريعة من الذرائع. فتصدى لقواتهم وشغلت المعارك الحربية عام ١٣٠٢هـ/عام ١١٨٥ كله والربع الأول من عام ١٣٠٣هـ/١٨٨٦م.

وبعد تلك المعارك الطاحنة بين الطرفين شعر الإمام بأنه فى حاجة إلى هدنة ريثما يعيد ترتيب قواته لمواصلة الجهاد من جديد، ولذا فقد عرض الصلح على فرى Frey قائد القوات الفرنسية فى السودان الغربى، واشترط هذا القائد لقبول الصلح أن يخلى الإمام الضفة اليسرى لنهر النيجر تماما من قواته.

(٢٨) Deschamps, H., Op. cit. Tome II. P 110

(٢٩) Hanotaux, G., Histoire des colonies Francaises et de L'expansion de al France dans le monde T .IV p 59

قبل الإمام ووقعت بين الطرفين فى ١٣٠٣هـ/١٦ أبريل ١٨٨٦ معاهدة كنييبا كورا Kenieba Koura وتتلخص أهم بنود المعاهدة فى اعتراف الإمام باستيلاء فرنسا على الضفة اليسرى لنهر النيجر من بلدة نيامينا Nyamina حتى تنكسو Tinkisso فى مقابل اعتراف فرنسا بملكيته للضفة اليمنى لهذا النهر حتى مملكة سيجو. كما تضمن أيضا اعتراف الإمام باستيلاء الفرنسيين على مناجم الذهب فى بوريه.

وعندما عرضت المعاهدة على الحكومة الفرنسية رفضتها وطالبت بتعديلها لأنها لم تحدد ممتلكات الطرفين تحديدا دقيقا. وبالفعل[٣٠] تم فى ١٣٠٤ هـ/ ٢٥ مارس ١٨٨٧ توقيع معاهدة بيساندوجو Bissandougou التى منحت فرنسا حقوقا أوسع، فانتزعت ممتلكات الإمام شمال نهر النيجر، وجعلت من هذا النهر حدا فاصلا بين ممتلكاتهما. كما أرغمت[٣١] الإمام على التجارة مع المراكز التجارية الفرنسية[٣٢].

لم تكن هذه الجولة فى صالح الإمام، فرغم الخسائر الكبيرة التى منيت بها فرنسا إلا أن الإمام وجد أنه لا يستطيع مواصلة القتال أمام إصرار فرنسا على القضاء عليه، ولذا قبل الصلح ليعيد تنظيم قواته وليلتقط أنفاسه، وللانتقام من عدوه تييبا لمساعدته الكبيرة للفرنسيين .

فما أن فرغ الإمام من جولته هذه حتى اتجه صوب عدوه تييبا لانزال العقاب به جزاء ماقدمت يداه، فهاجم بلاده وحاصر عاصمتها سيكاسو ستة شهور، ولكنه فشل فى إسقاطها. وحاول الفرنسيون اقناع الإمام بعقد صلح مع حليفهم تييبا، ولكنه رفض فلجأوا إلى وضع العراقيل أمام تجارته مع ميناء فريتون لتضييق الخناق عليه، ولتخفيف الضغط الواقع على حليفهم تييبا، وبذلك حيل بين الإمام وبين النيل من عدوه .

---

(٣٠) Hanotaux G. op. cit. p. 205.

(٣١) Gann , L., op. cit. vol I P. 209

(٣٢) Oloruntimenhin, The Segu Tukulro Empire, P 250.

وتمثل هذه الجولة قمة المأساة بالنسبة للقوى الإسلامية فى غرب أفريقيا، فتنجح فرنسا فى ضرب المسلمين بعضهم ببعض اضعافا لهم وتحقيقا لأطماعها، ولم تستطع تلك القوى أن تدرك أن عدوها واحد، ألا وهو فرنسا، وأن من الخير لها جميعا أن تنسى أحقادها ومطامعها أمام الخطر الداهم الذى يتهددها جميعا بالفناء وتبدأ الجولة الثانية من الجهاد بتولى أرشينار قيادة الجيش فى السودان الفرنسى. فأرشينار كان من غلاة الاستعماريين الفرنسيين، وممن يكرهون الإسلام والمسلمين كراهية شديدة، وممن يؤمنون بضرورة التوسع الفرنسى إلى أقصى مدى فى غرب أفريقيا. وكان قائدا عسكريا محنكا، ولا يلقى بالا إلى آراء الحكومة الفرنسية إذا ما تعارضت مع أهدافه التوسعية. فكثيرا ما كان يقوم بمغامراته العسكرية دون انتظار موافقة حكومته عليها، فهو كقائد عسكرى يريد أن يضرب ضربته فى الوقت المناسب سواء اتفق ذلك مع ورود موافقة الحكومة أم لا.

كان القائد الفرنسى الجديد يريد أن يبنى لنفسه مجدا حربيا فى هذه المنطقة من القارة الأفريقية مهما كلفه ذلك من جهد ومال، ومهما سفك من دماء الأفارقة الأبرياء الذين يأبون الذلة فى ديارهم، والذين أعزهم الإسلام بنوره. وكان يرى أن العقبة الكؤود التى تقف دون تحقيق تلك الأهواء الإمام ساموری. ومن ثم كان يريد القضاء عليه بمختلف السبل، بالحرب تارة، والحيلة والخداع تارة أخرى، وبتأليب أعدائه عليه، والحيلولة دون نجاح مساعيه فى اتحاده مع الحكام المسلمين فى المنطقة. وقد اتبع الفرنسيون وقتئذ نفس السياسة مع أمير المؤمنين أحمدو شيخو(٣٣).

وفى هذه المرحلة بالذات يعلو صوت الإمام ساموری بالجهاد ضد الفرنسيين المسيحيين دفاعا عن دينه وعرضه وأرضه، لأنه كان يدرك أنه أمام عدو لا إله له ولا ذمة.

لم يشأ القائد الفرنسى أرشينار أن يدخل بعد توليه القيادة مباشرة فى صراع مع

---

(٣٣) ذهنى ، المرجع السابق ص ١٤٠

الإمام ساموری، وذلك کی يمنح نفسه فسحة من الوقت للدراسة والتدبير، وكل ما فعله فی ذلك الوقت أن وجه تحذيرا للإمام من اعتداءات جنوده على الممتلكات الفرنسية، مما يتنافى مع نصوص معاهدة بيساندوجو، وطالبه بضرورة توقيع معاهدة جديدة تساير الأوضاع الحالية فی المنطقة.

ولما كان الإمام لم يستعد بعد لشن حرب جديدة ضد الفرنسيين ولم يرد أن يفرض عليه الفرنسيون وقت المعركة، قبل توقيع معاهدة نياكو Niako فی عام ٦ - ١٣٠٧ هـ/١٨٨٩م، وفيها تنازل الإمام للفرنسيين عن الأراضی الواقعة بين تنكيسو وأعالی نهر النيجر كما تعهد بمنع جنوده من الإغارة على الأراضی التابعة لفرنسا(٣٤).

كانت هذه المعاهدة هی الخطوة الأولى من جانب القائد الفرنسی لتقليم أظافر الإمام وتقليص نفوذه، وإعطاء حركة التوسع الفرنسية دفعة جديدة إلى الأمام. أما من وجهة نظر الإمام فكانت المعاهدة مجرد هدنة لا تلزمه بشیء، ولذا فقد استمر فی إغاراته على الأراضی التابعة لفرنسا، وأخيرا أعلن فی ١٣٠٦ هـ/٥ مايو ١٨٨٩ نقضه للمعاهدة بعد أن وجد تأييدا وتشجيعا من قبل حاكم سيراليون الانجليزی وقد تبلور هذا التأييد فی معاهدة صداقة سميت بمعاهدة جارت Garret التی عقدت بين الطرفين فی ١٣٠٧ هـ/٢٤ مايو ١٨٩٠ والتی يتعهد فيها الحاكم الانجليزی بمساعدة الإمام بشرط أن يلتزم الإمام بعدم الاستيلاء على أی أراض جديدة إلا بعد إخطار المسئولين الانجليز.

وكان هدف الإمام من وراء عقده لتلك المعاهدة أن يعتمد على صداقة دولة كبرى بعد أن تخلص من معاهدته مع فرنسا، وأن يستغل التنافس القائم بين الدولتين لمصلحته. وإذا كانت وجهة نظر حكام سيراليون هی مآزرة الإمام تدعيما للمصالح التجارية القائمة بين الطرفين، فان هذا لم يكن يمثل وجهة نظر الحكومة البريطانية التی رفضت التصديق على المعاهدة، لأنها تتعارض مع اعترافها بشرعية معاهدات الحماية التی أبرمتها فرنسا

(٣٤) Hanotaux, G., op. cit, T .IV P. 206

مع حكام غرب أفريقيا. وهكذا يواجه الإمام بالحقيقة المرة وهى أنه مهما بدا من تنافس بين الدولتين الكبيرتين بريطانيا وفرنسا فهناك اتفاق فيما بينهما حول تقسيم مناطق النفوذ فى أفريقيا، وعليه إذاً أن يعتمد على قوته وحده إذا لم يستطـع توحيد قوى الحـكام المسلمين معه فى مواجهة عدو غادر، صمم على القضاء على كل القوى الإسلامية فى غرب أفريقيا - وتؤازره القوى الاستعمارية العالمية، مهما كلفه الأمر.

بدأ القائد الفرنسى حربه للإمام بإثارة تييبا عدو الإمام اللدود ضده، وكان هدفه من وراء ذلك توثيق روابط التحالف بين الطرفين، وقبل الدخول فى جولة جديدة من الصراع مع الإمام . وقد أعمت العداوة تييبا فلم يدرك أن الخطر الذى يتهدده هو وجاره الإمام ساموري واحد،وأن فرنسا ستتخلص منهم الواحد تلو الآخر، وأنها لو أبقت عليه فسيكون لها تابعا ذليلا، لا حليفا كما يظن .

ويبدو عدم إدراك تييبا لخطر الفرنسيين عليه وعلى جيرانه من الحكام المسلمين ما أعلنه فى لقائه بالبعثة العسكرية الفرنسية التى أرسلها القائد الفرنسى ارشينار لزيارته حيث يقول موجها الخطاب اليهم:« إنى على ثقة من حسن استقبال أهل البلاد لكم فهم لن يخافوكم. ولن يخشوا إغاراتكم وسوف يتغير رأيهم فيكم، وتتلاشى كراهيتهم عندما يتفهمونكم ويدركون أغراضكم»(٣٥). وهذه العبارات تدل بما لا يدع مجالا للشك أن عداء تييبا للإمام قد حجب عنه الرؤية السليمة .

وفى الوقت نفسه الذى كان يعمل فيه القائد الفرنسى على توثيق عرى الصداقة مع تييبا، وعلى تأجيج عداوته للإمام، كان يبعث الى الإمام بالعديد من الرسائل الودية التى تنم عن حرص فرنسا الشديد على الاحتفاظ بمودته، وذلك ليلقى الطمأنينة فى قلبه، فيركن الى الدعة وعدم الحذر، ومن ثم يسهل القضاء عليه .

---

(٣٥) Collin, R., Problems in the history of colonial Africa, P. 664.

ولكن سياسة المخاتلة والخداع لم تلق إلا كل سخرية واحتقار من قبل الإمام، وذلك لأنه كان يدرك تمام الادراك نوايا الفرنسيين الحقيقية فى غرب أفريقيا.

ونقتطف ـ على سبيل المثال ـ بعض فقرات من تلك الرسائل المليئة بالمديح الزائف، والتى تكشف فى الوقت نفسه عن النوايا الحقيقية الخبيثة إزاء الإمام ودولته الإسلامية. ففى الخطاب الذى وجهه الى الإمام فى ١٣٠٦ هـ/٢٧ مارس ١٨٨٩ يقول: «أرسل لك تحياتى، اننى سأصل سيجيرى فى ٢٨ رجب ١٣٠٦/٣٠ مارس، وحيث أننى عملت برغبتك فى رؤيتى، فقد غيرت خط سيرى فلن أذهب لباماكو وسأحضر الى سيجيرى... لقد تركت جيشى فى كيتا، وسيرافقنى فقط أربعون فارسا، وأربعون آخرون من الرماة حتى أثبت لك حسن نواياى، وبأننى لا أهدد أحدا وانما سأحضر لرؤيتك فحسب.. لقد أصدرت أوامرى الى حاكم سيجيرى لاستقبالك استقبالا يليق بالملوك، فستطلق لك المدافع ترحيبا بمقدمك، وستعامل كملك خلال وجودك فى ضيافتى حيث تمكث معى ما شئت من الوقت، وتغادرنى متى شئت»[٣٦].

وفى رسالة أخرى للإمام يقول أرشينار «نحن (الفرنسيون) لا نريد بلادا أخرى غير التى منحتها إيانا، لأننا نفضل أن نكون فى جوار ملك عظيم مثلك، على أن نفكر فى انتزاع ملكك. والرأى عندى أن نعيش فى سلام متجاورين، ولكن هذا السلام لن يتحقق طالما تركت جنودك من السوفا يحكمون الأقاليم المجاورة لنا، ولا عمل لهم سوى الحرب وأخذ المزيد من الأسرى... لا يليق بملك عظيم مثلك أن يحكم بلاده بهذه الطريقة... يمكنك أن تسند حكم أقاليم مملكتك إلى حكام أذكياء يقومون لك بجمع الضرائب بانتظام، ويعملون على زيادة رخاء مملكتك، ويحققون لك الثراء العريض، وهذا أفضل من الحرب وبذلك تضمن عدم ثورة أى بلد ضدك، وسوف تجنى أرباحا طائلة من التجارة بكل حرية مع رعايانا.. ولو حدث أن قامت إحدى القرى بالثورة عليك، وطلبت حمايتنا والانضمام الينا فاتركها تفعل ما تريد، لأن أهلها سيعودون اليك

---

(٣٦) Menioud, J., Les pionniers du Sudan, T .II P. 136.

عندما تنتهى الحرب ويعود السلام... احتفظ بجنودك السوفا لأعدائك الذين يرغبون فى انتزاع ملكك، واطمئن من جهتنا طالما بقيت ملتزما بالمعاهدة وبقى جنودك ملتزمين بعدم الإغارة علينا... وإذا احترمت المعاهدة المبرمة بيننا فسوف أحضر لزيارتك فى العام القادم، وسوف أزودك بضابط أبيض (فرنسى)، وبطبيب، وبسبعة أو ثمانية من الرماة للانضمام الى جيشك، ولن يجرؤ أحد على مهاجمتك بعد ذلك... اننا لا نطلب منك سوى احترام المعاهدة، وأن تأمر جنودك فى كل مكان باحترامها كذلك. ولا تنسى بأننى سأضطر لمحاربتك مرة أخرى إذا ما خرقت المعاهدة»(٣٧).

إذا ما تناولنا الفقرة الأولى الواردة بالخطاب المؤرخ فى ١٣٠٦ هـ /٢٧ مارس ١٨٨٩م بالدراسة والتحليل، نجد أنها مليئة بمعسول القول، بقصد إظهار المودة الزائفة، إذ يذكر أنه ما أن علم القائد الفرنسى برغبة الإمام فى رؤيته حتى بادر إلى تغيير خط سيره تلهفا لتلبية هذه الرغبة، ولم يكن هذا صحيحا.

كذلك حاول القائد الفرنسى فى هذه الرسالة أن يبث الطمأنينة فى قلب الإمام عندما أخبره بترك جيشه، وحضوره فى ثلة من الحرس الخاص إثباتا لحسن نيته. وقصد من وراء ذلك أن يركن الإمام إلى الدعة والاطمئنان وألا يأخذ حذره مما يبيته له الفرنسيون.

وفى ختام هذه الفقرة يحاول القائد الفرنسى أن يستخف بعقل الإمام وأن يخدعه بالمظاهر الكاذبة مثل إطلاق المدافع تحية له، واستقباله استقبال الملوك العظام. ولكن هيهات أن يخدع الإمام بهذه الأقوال ـ وهو الرجل المسلم المجاهد فى سبيل الله بالمال والنفس ـ وأن يأخذه الغرور، وبذلك يستطيع القائد الفرنسى أن يقتله بالغرور بعد أن عجز عن قتله بالسيف.

وإذا انتقلنا الى الفقرة الثانية من الرسالة الثانية نجد أن القائد الفرنسى قد استهلها

---

(٣٧) المصدر نفسه ص ١٤٠ ، ١٤١

بخدعة أخرى، ألا وهى إعلان عزوفه عن ضم أراض جديدة لحوزته، وأنه قانع بما منحه إياه الإمام ساموری، أى أنه يحاول إيهام الإمام بأنه ليس لفرنسا أهداف توسعية بعد ذلك، وأن ما أخذه الفرنسيون لم يكن اغتصابا، وإنما هو منحة من الإمام. وهذا ما لم يحدث.

ونظرا لأن الإمام ساموری كان يسند حكم أقاليم دولته إلى كبار ضباطه من السوفا - ولاسيما تلك المجاورة للمناطق التابعة لفرنسا - ونظرا لأن هؤلاء الضباط كانوا دائمى الاغارة على الأراضى التى اغتصبها الفرنسيون، فقد أوجدت تلك الاغارات حالة من الفوضى وعدم الاستقرار للنفوذ الفرنسى فى تلك المنطقة، ومن ثم فقد تطوع القائد الفرنسى بتقديم نصيحة مسمومة فى رسالته للإمام بأن من مصلحته أن يستبدل هؤلاء الحكام العسكريين بآخرين مدنيين يعملون على جمع الضرائب بصفة منتظمة، وتنمية موارد البلاد وزيادة رخائها. وهو بهذه النصيحة التى تبدو فى ظاهرها الرحمة أن يبعد الحكام العسكريين اليقظين من المناطق القريبة من الفرنسيين حتى يسهل عليهم اجتياحها فى الوقت المناسب دون كبير تضحيات.

وفى الوقت نفسه يغريه بالتوسع التجارى مع الفرنسيين، وذلك ليحول بينه وبين استيراد ما يحتاج إليه من أسلحة من التجار الانجليز فى ميناء فريتون بسيراليون، وهى من أسباب قوته - ليقع فريسة فى قبضة فرنسا من الناحية الاقتصادية، وقبل أن تجهز عليه عسكريا وسياسيا.

ثم يتطرق القائد الفرنسى بدهاء شديد إلى مسألة ثورة بعض القرى على الإمام - وكانت تلك الثورات تتم عادة بتحريض من الفرنسيين ومن حليفهم تيبيا والتجائها إلى الفرنسيين طلبا للحماية ورغبة فى الانضمام إليهم، فيقول بأنه إذا ما حدث ذلك، فيجب على الإمام ألا يحاربها بغية إرجاعها بالقوة إلى سيادته، بل عليه أن يتركها للفرنسيين حتى إذا ما انتهت الثورة عادت إليه مرة أخرى دون حرب .

ومعنى هذا أن الفرنسيين يحاولون استقطاع مملكة الإمام جزءً جزءً دون أن يكون له حق الاعتراض، فتلك القرى التى ستدخل فى حمايتهم لن يسمحوا بعودتها مرة أخرى لحوزة الإمام، لأنهم سيحتجون على ذلك بأن هذه القرى لم تؤخذ عنوة وإنما طلب أهلها الانضمام للفرنسيين بمحض إرادتهم، ولذا فهم لن يعيدوها بغير رغبتهم.

وفى نهاية تلك الفقرة يتسلل القائد الفرنسى أرشينار إلى الهدف الرئيسى من التوسع الفرنسى، ألا وهو وضع جيش الإمام ساموری المسلم تحت إشراف ضابط فرنسى مسيحى واحتواء هذا الجيش تمهيدا للقضاء على الإمام فى نهاية الأمر، وذلك عندما اقترح على الإمام إرسال ضابط فرنسى وطبيب وسبعة أو ثمانية من الرماة للالتحاق بجيش الإمام، واعتبر ذلك تأمينا لسلامة الإمام، إذ لن يجرؤ أحد ـ عندما يعلم بوجود هؤلاء الفرنسيين ـ على مهاجمته.

وبعد هذا الحشد من المغالطات والخداع التى امتلأت بها الرسالة يختتمها القائد الفرنسى بالتهديد السافر الصريح بأنه إذا لم يحترم الإمام وجنوده المعاهدة فسيحاربه مرة أخرى[٣٨].

كانت جميع المعاهدات التى عقدها الإمام مع الفرنسيين مؤقتة، وليس هذا من وجهة نظره هو فحسب، بل من وجهة نظر الطرفين معا؛ ففرنسا قد وجدت فيها تحديدا لنشاط الإمام، واضعافا لقوته، ريثما يحين الوقت المناسب للقضاء عليه. والإمام نفسه وجد فيها هدنة لتدعيم قوته ومواصلة جهاده من أجل نشر الإسلام بين القبائل الوثنية، وإقامة دولته على أسس اسلامية صحيحة. فتخصيص كل قوته لمحاربة فرنسا بصفة دائمة سيحول بينه وبين تحقيق هدفه الدينى الأسمى. ومن ثم كان يركن من حين لآخر لإبرام تلك المعاهدات التى لن يلتزم بها ، وذلك لادراكه بأن فرنسا لن تحترمها هى الأخرى

(٣٨) ذهنى ـ الهام، المرجع السابق ص ١٥٠، ١٥١

حتى لو نفذها بكل صدق وأمانه، وهو فى هذا الموقف انما يتبع قول الله فى محكم كتابه

« وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ »(٣٩)

وكذلك قوله سبحانه وتعالى.

« وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ »(٤٠).

لم يفلح القائد الفرنسى فى خداع الإمام رغم العديد من الرسائل التى أرسلها إليه والمليئة بالترغيب تارة والتهديد تارة أخرى، وأيقن بأن معاهداته مع الإمام ما هى إلا حبر على ورق، وأنه لن يرضخ إلا لمنطق القوة وحده.وفى تقرير بعث به القائد الفرنسى الى حكومته يحذرها فيه من قوة ساموري، ويوصى فيه من سيخلفه فى قيادة الجيش الفرنسى فى السودان الغربى «أن يعمل ما فى استطاعته لإحلال السلام، والحد من سلطان ساموري، وألا يستهين بجيش أحمدو، ولا بجيش ساموري المزود بالكثير من الأسلحة كما يقوم بتطوير ما يستولى عليه من أسلحتنا»(٤١).

وفى هذه الفترة الحرجة من تاريخ جهاد الإمام نجده يشعر بالحاجة الماسة الى تكوين حلف من القوى الإسلامية فى المنطقة يضم أمير المؤمنين أحمدو شيخوحاكم سيجو بصفة مبدئية، لاسيما وأن الفرنسيين قد هاجموا مملكته وأخذوا يهددونها، فاتصل بأحمدو لحثه على تكوين تحالف معه لصد الفرنسيين ولكن مما يؤسف له أن هذا الحلف لم يخرج إلى حيز الوجود، وذلك لاسراع الفرنسيين بتوجيه ضربة الى كل منهما على حدة لمنع تكوينه.

والحقيقة أن أمير المؤمنين أحمدو شيخو كان يواجه مشكلات عديدة منذ وفاة أبيه

---

(٣٩) سورة آل عمران آية (٧٣)

(٤٠) سورة البقرة آية (١٢٠)

(٤١) Meniaud, J., op. cit. T. II pp 146-47

الحاج عمر، نتيجة منافسة قواده وأشقائه له فى الحكم مما ترتب عليه ضعف مملكته وتفككها[٤٢].

أسرع القائد الفرنسى أرشينار ـ بعد أن شاهد محاولات الوحدة بين القوى الإسلامية ـ باعداد حملة عسكرية لمهاجمة الإمام فى ١٣٠٨ هـ/ أبريل ١٨٩١ دون أن ينتظر موافقة حكومته على ذلك، ورغم معارضة حاكم السنغال الفرنسى لها.وكان هدف الحملة الرئيسى تمزيق أوصال مملكة الإمام عن طريق الاستيلاء على المدينتين الرئيسيتين وهما: كانكان، وبيساندوجو.

لن ندخل فى تفاصيل المعارك التى دارت بشأنها، ولكن من المهم أن نقرر حقيقة هامة وهى أن الفرنسيين فى تقدمهم صوب هاتين المدينتين خاضوا معارك طاحنة مع قوات الإمام. وفى الوقت نفسه اتبع الإمام أسلوبا حربيا متميزا فى قتاله مع الفرنسيين ألا وهو إحراق كل البلاد التى تقع فى طريق الحملات الفرنسية بعد إخلائها من سكانها حتى يحرم الفرنسيين من الانتفاع بما يحتاجه الجيش من مؤن وماء ومأوى. ولذا عندما سقطت هاتان المدينتان فى قبضتهم بعد جهاد مرير، وجدوهما كومتين من رماد[٤٣].

وعندما وصلت الأمور الى هذا الحد من التمزق والسوء وأن الأمر بات فوق مستوى الخلافات الشخصية وأخطر من أى تدبير فردى، وأن مصير الإسلام والمسلمين قد أصبح فى خطر شديد، قام بالاتصال بأمير المؤمنين أحمدو شيخو وبعدوه تيبيا لتكوين وحدة من القوى الإسلامية الثلاث لدفع الكارثة التى تتهددهم جميعا. ولكن هذه المحاولة الأخيرة لم تتحقق، لأن هذا الادراك لخطورة الموقف جاء متأخرا، أى بعد فوات الأوان، فلم يعد فى الامكان فى مثل هذه الأحوال البالغة السوء إخراج هذا الاتحاد الإسلامى الى حيز الوجود، لاسيما بعد أن نال التعب والضعف منهم كل منال[٤٤].

---

(٤٢) Forstner, K., The conquest of Western Sudan, p. 48

(٤٣) ذهنى ، المرجع السابق ص ١٥٧

(٤٤) Meniaud, op. cit. T .II p 277

وبهذا تنتهى المرحلة الثانية من جهاد الإمام سامورى والقوى الإسلامية مشتتة، والعدو يعمل جاهدا على القضاء عليهم منفردين.

بدأت المرحلة الثالثة من جهاد الإمام بعد سقوط كانكان وبيساندوجو،ولكن ليس معنى سقوط المدينتين الرئيسيتين انتهاء مقاومة الإمام، فبالرغم من ضياع أجزاء كبيرة من أراضيه إلا أنه كان يعوضها بضم أراض جديدة لملكه. وفى الوقت نفسه فهو لأزال يحتفظ بقوة عسكرية كبيرة، مؤمنة بالجهاد فى سبيل الله لرفع راية الإسلام والقضاء على أعدائه. فإذا ما سقطت بعض الأراضى فى أيدى الفرنسيين انتقل الى غيرها وهكذا، فعاصمة ملكه ليست ثابتة وإنما تنتقل الى حيث يقيم الإمام. ومن هنا اطلق المؤرخون الفرنسيون على دولة الإمام سامورى بالامبراطورية المتنقلة أو المتحركة Empire Mobile. وهذا الاسلوب العسكرى الذى اتبعه الإمام انما يتمشى مع طبيعة دولته، فهو لا يستطيع انشاء تحصينات قوية لأنها ستكلفه أموالا طائلة ، وفى الوقت نفسه لن يستطيع الصمود أمام المدفعية الفرنسية القوية. ومن ثم فالتحرك الدائم والمستمر والقائم على المباغتة هى سمة من سمات هذه الدولة الإسلامية التى كونها الإمام سامورى.

بالاضافة الى ذلك فان الامام عمل جاهدا ـ ونجح فى ذلك الى حد بعيد ـ على إعداد جيش مجهز بأحدث ما عرفه عصره من أسلحة وعتاد ـ فهو لم يحارب فرنسا بأسلحة بدائية وانما حاربها بجيش أحسن تدريبه وتسليحه، فقد صدع لقول الله سبحانه وتعالى: «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم».

ومن هنا كانت خطورته على الوجود الفرنسى فى غرب أفريقيا، ويزيد منها معرفته التامة بطبيعة الأرض التى يحارب فوقها. ولذا كان المسئولون الفرنسيون يدركون أن إضعاف قوة الإمام سامورى ليست نهاية المطاف بالنسبة لهم، فلن تستقر الأوضاع فى غرب أفريقيا لصالحهم إلا بالقضاء على الإمام نفسه[٤٥]. وكما أن الحكومة الفرنسية

---

(٤٥) المصدر نفسه ص ٣٠٢

كانت متلهفة لوضع حد للتوسع العسكرى فى تلك البلاد[٤٦]، نظرا لطول فترة الحرب التى لم تكن تتوقعها بحال من الأحوال.

زد على ذلك الضغط الواقع على الحكومة الفرنسية من قبل المعارضة داخل البرلمان، خصوصا وأن العمليات الحربية قد كبدت فرنسا الكثير من الرجال والأموال.وبناء على ذلك تصدر الحكومة الفرنسية الى مسئوليها فى تلك البلاد أوامرها بالانتهاء من الأعمال العسكرية فى أسرع وقت ممكن والتفرغ لتنمية موارد البلاد الاقتصادية بما يعود على فرنسا أولا بالنفع الكبير.

وتنفيذا لتلك السياسة الجديدة قامت الحكومة الفرنسية بتعيين حاكم مدنى لغرب أفريقيا يدعى جروديه Grodet مزودا بالصلاحيات اللازمة لتحقيق هذا الهدف. كما عينت قائدا عسكريا جديدا خلفا لارشينار يدعى بونييه Bonnier للغرض نفسه.

واصلت قوات الإمام غاراتها المكثفة على الأراضى التابعة لفرنسا وكان الهدف منها إظهار قوة المعسكر الإسلامى، وبأن هذه القوة لم تضعف بفقد بعض الأراضى،هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى إثارة الفوضى والاضطراب فى المناطق التابعة لفرنسا حتى لا يشعر الفرنسيون بالاطمئنان والاستقرار.

وإزاء تلك الهجمات المتكررة لقوات الإمام جرد القائد الفرنسى الجديد حملة بقيادة مونتى Monteil لتتبع تلك القوات والقضاء عليها. وقد واجهت الحملة قتالا ضاريا، فمنيت بهزيمة ساحقة، وأسر من أفرادها عدد كبير.

وإزاء تلك الهزيمة المنكرة وجهت القيادة الفرنسية حملة أخرى لم يكن نصيبها بأحسن حال من سابقتها. ولذا رأى حاكم السنغال الفرنسى شودييه Chaudie بعد هذا الفشل

---

(٤٦) Forstner, op. cit. P. 18

المتكرر أن يوفد الرائد برولو Broulot لمقابلة الإمام والاتفاق على توقيع معاهدة سلام بين الطرفين تضع حدا للحروب التى استمرت سنوات طويلة.

مال الإمام إلى عقد معاهدة سلام وتجارة بين الطرفين خصوصا وأنه سيعقد تلك المعاهدة من مركز قوة وليس من مركز ضعف. هذا فضلا عن أن المعاهدة ستتيح له فرصة التفرغ لنشر الإسلام، وهى المهمة المقدسة التى كرس حياته من أجلها .

ولكن الفرنسيين قاموا بخدعة دنيئة عند تحريرهم للنسخة الفرنسية من المعاهدة فبدلا من النص على أنها معاهدة سلام وتجارة كما تم الاتفاق عليه، جعلوها معاهدة حماية تعطيهم الحق فى تعيين مندوب فرنسى فى الأراضى الخاضعة لحكم الإمام يكون ممثلا لسلطة الاحتلال الفرنسى فيها. وفعلوا الشئ نفسه فى معاهدة نانجو التى عقدوها مع أمير المؤمنين أحمدو شيخو ١٢٩٧ هـ/٣ نوفمبر ١٨٨٠[٤٧].

رفض الإمام المعاهدة كما أرادها الفرنسيون وتجدد القتال مرة أخرى، وفى هذه المرحلة بدأ الإمام يغير من أسلوبه العسكرى مستغلا فى ذلك طبيعة المنطقة التى يعرفها تمام المعرفة، فلجأ الى مناطق الغابات الداخلية لساحل العاج، وأخذت القوات الفرنسية تتعقبه أينما ذهب.

وعندما وجد الإمام قواته قد قل عددها وانهكها التعب من كثرة الحروب وشعر بأنه لن يستطيع مواصلة القتال وهو على هذه الحال طلب من الفرنسيين إيقاف القتال والتفاهم فى أمر الصلح. رفض القائد الفرنسى ذلك ما لم يقم الإمام بتسليم أسلحته وأبنائه كضمان لاقرار السلام، وعظم على الإمام هذا الأمر فرفضه واستمر فى القتال فى ظروف بالغة السوء الى أن تمكن الفرنسيون من القبض عليه عن طريق الغدر والخيانة، حيث نفى الى جزيرة أوجويه Ougoue فى عام ٦ ـ١٣١٧ هـ/١٨٩٨م. وبذلك تستقر الأوضاع لفرنسا فى غرب أفريقيا بصفة نهائية.

---

(٤٧) Oloruntimenhin, op. cit. pp 240 - 241.

وإذا أردنا أن نقوِّم حركة الامام ساموری توری وجهاده من أجل تكوين هذه الدولة الإسلامية الواسعة، وسعيه الدائب لادخال القبائل الوثنية فى الاسلام، وتعريفهم بشئون دينهم الجديد، وفتح العديد من المدارس لتعليمهم، وحروبه المريرة ضد التغلغل الفرنسى فى غرب أفريقيا دفاعا عن الإسلام والمسلمين، نجد أنفسنا أمام حشد هائل من الأعمال الجليلة التى تستلفت نظر المؤرخ وتدعوه إلى الدراسة المتأنية وصولا إلى الحقيقة، وبعيدا عن العواطف التى قد تجرفه عن مجرى الحق والصدق.

إن أهم سلاح استخدمه الفرنسيون فى غرب أفريقيا ضد القوى الإسلامية هناك هو سلاح (فرق تسد) ، فقد حرصوا كل الحرص على ألا تجتمع كلمة الحكام المسلمين على حربهم صفا واحدا، لأنهم كانوا يدركون بأنه لو قدر لأكبر حاكمين مسلمين وهما الامام ساموری توری وأمير المؤمنين أحمدو شيخو أن يتحالفا مع بعضهما ضدهم لكان ذلك كارثة محققة بالنسبة لهم[٤٨].

كما أنهم استغلوا العداء القائم بين الإمام وتيببا لضرب كل منهما بالآخر ونجحوا فى ضم تيببا إلى جانبهم ضد جاره المسلم الإمام ساموری. وعندما رفض خليفة تيببا الاستمرار فى تعاونه مع الفرنسيين ضد الإمام، لادراكه بخطورة هذا العمل هاجمه الفرنسيون واستولوا على بلاده.

ونجح الفرنسيون فى إذكاء روح العداوة بين أمير المؤمنين أحمدو شيخو ومحمدو الأمين حاكم سنغمبيا، وتحالفوا مع أحمدو للقضاء على محمدو الأمين حتى إذا ما تم لهم ذلك انقضوا على أحمدو وقضوا عليه أيضا. وهذا درس يجب أن يعيه المسلمون فى الآونة الحاضرة.

وترتب على تقاعس الحكام المسلمين عن الاتحاد ضد عدوهم المشترك أن أى نصر كان يحرزه الفرنسيون على أحدهم كانوا يهددون به الآخرين للحصول على ما يريدون[٤٩].

---

(٤٨) Oloruntimenhin, op. cit. p 295

(٤٩) Meniaud, J. Op. cit. TI pp. 243 - 245

كذلك نجد أن سياسة فرنسا إزاء المقاومة الإسلامية التى وقفت سدا منيعا أمام تغلغلها فى غرب أفريقيا قد خططت بصورة شاملة، بحيث نجد أنها إذا ما دخلت فى حرب مع أحد الأطراف كانت تهادن فى الوقت نفسه - الأطراف الأخرى وذلك حتى لا تحارب فى أكثر من جبهة واحدة إلا مضطرة، وحتى لا تؤدى محاربة الأطراف جميعها فى وقت واحد الى اشعارهم بالخطر الواحد الذى يتهددهم مما قد يدفعهم الى التحالف والاتحاد ضدها.

واستغل الفرنسيون كذلك العداءات القبلية فى إشعال نار العداوة فى غرب أفريقيا، وذلك لاشغال الحكام المسلمين عن تتبع تحركاتهم التوسعية فى تلك البلاد من ناحية، ولاضعاف قوتهم من ناحية أخرى.

إن الفرنسيين فى تقدمهم داخل مملكة الإمام ساموري كانوا ينشئون العديد من الحصون المنيعة ويزودونها بعدد كبير من الجنود وبكميات كبيرة من المؤن والذخائر بحيث يصعب على الإمام استعادتها مرة ثانية إلا بخسارة فادحة. كما أن تلك الحصون كانت تمثل عائقا أمام الحكام المسلمين الآخرين لو فكروا فى أن يهبوا لنجدته.
كذلك استخدم الفرنسيون الوثنيين الذين لم يدخلوا فى الإسلام فى ضرب القوى الإسلامية وفى اضعاف المسلمين.

ومهما يكن من شئ فان حركة الإمام ساموري تورى تعد من الحركات الإسلامية الفتية فى القرن الرابع عشر الهجرى/ التاسع عشر الميلادى، فقد أحيت الإسلام فى بلاد تأصلت فيها الوثنية، وأقامت دولة على أساس متين من العقيدة الإسلامية الصحيحة. ولكنها - لسوء الحظ - ووجهت بقوة استعمارية شرسة تساندها القوى الاستعمارية الكبرى التى قسمت أفريقيا فيما بينها الى مناطق نفوذ. وكان هدف تلك القوى القضاء على الإسلام، لأنه العائق القوى أمام تقدمها فى القارة الأفريقية.

وإذا كانت قوى الشر والعدوان قد تكاتفت لموازرة بعضها البعض، فان القوى الإسلامية المدافعة لم تتكاتف وتتحد لصد هذا العدوان وهى فى أشد الحاجة إليه،

فتشتت وغلبت على أمرها ـ لا لقلة فى العدد والعدة ـ وإنما لعدم الادراك وسوء التدبير.

وفى هذه الظروف غير المواتية للقوى الاسلامية وقف الإمام ساموري صامدا أمام عدو شرس وفى حرب غير متكافئة رافعا راية الجهاد ثلاث عشرة سنة، دوّخ فيها الفرنسيين، ووقف أمام أكبر قادتهم العسكريين على قدم المساواة من ناحية الخبرة العسكرية وفنون القتال، بحيث استحق من أعدائه عن جدارة لقب (بونابرت السودان)، والحق ما شهدت به الأعداء .

والحمد لله رب العالمين .

مصادر ومراجع البحث

(أ) العربيـــة :

١ - ذهني، الهام محمد على ، التغلغل الفرنسي في النيجر ومـوقف الـوطنيين (١٨٨٤ - ١٩٠٤) رسالة ماجستير لم تطبع ١٩٧٧

٢ - السروجي، محمد محمود (دكتور) ، تاريخ أوربا الدبلوماسي من السبعينات للقرن التاسع عشر الى الحرب العالمية الأولى،اسكندرية ١٩٦٦.

٣ - السروجي، محمد محمود (دكتور) ، العلاقات التونسية الفرنسية من الحماية الى الاستقلال، اسكندرية (بدون تاريخ).

(ب) الأجنبيـــــة :

- الوثائق المنشـــورة :

1 - Documents Diplomatiques Françaises, 1er serie, Paris. Tome IX (23 Aout 1891-19 Août 1892) Paris 1939.

2 - Hargreaves, John, France in West Africa. London 1969.

3 - Meniaud, Jacques, Les pionniers du Sudan, Tome 1-11 Paris 1931

4 - Olruntimenhn, The Segu Tukulor Empire, London, 1972.

- المصادر والمراجع :

5 - Ambrere, Francis, Les Guides blues de L'Afrique Occidentale, Francaises. Paris 1958.

6 - Collins, Robert, Problems in the history of colonial Africa, USA 1960.

7 - Crowder, Michael, West Africa resistance, London 1971.

8 - Deschamps, Hubert, Histoire générale de I 'Afrique Noire. Tome II, Paris 1971.

9 - Fage, J. D., A history of West Africa. Cambridge 1969.

10 - Forstner, Kanya, The conquest of Western Sudan, Cambridge 1969.

11 - Gann. L. H. , Colonialism in Africa, vol. I. Cambridge 1969.

12 - Guernier, Eugene, Afrique Occidentale Francaise. Tome 1 Paris 1949.

13 - Hanotaux, Gabriel, Histoire des colonies Françaises et de L'expansion de la France dans le monde. T.IV. Paris 1931.

14 - Hogben, J. , An introduction to the history of Northern Nigeria 1967.

15 - Johnston, Harry, A history of the colonization of Africa, Cambridge 1913.

16 - Labouret , Henri, L'Afrique precolonial. Paris. 1959.

17 - Langer, W., Diplomacy of imperialism.

18 - Schnerb, Robert, Histoire Generale des civilization Tome VI, Paris 1691.

IMAM SAMORY TOURE'S JIHAD IN WEST AFRICA DURING THE SECOND HALF OF THE NINETEENTH CENTURY.

By: Dr. Soraugi

The scond half of the nineteenth century witnessed European colonialism expansion in Africa, especially after the two Berlin congresses in 1878 and 1884. North and West Africa was the sphere of French expansion where France faced strong resistance from the Islamic Kingdoms from both official and popular sides. This resistance was led by Islamic leaders such as Haj Umar Tal, Ahmado Shikho and Samory Toure. The more powerful among them was Samory Toure who fought the French for about thirteen years. French means of struggle against him varied according to circumstances. Sometimes they resorted to military force some other times to policy and sometimes to treachery. Their strongest weapons was using the policy of divide and rule between Muslim leaders, preveting them from uniting against the French. Their means were stirring old tribal disputes. Ultimately they were able to destory them one after the other.

Although his brave and wise leadership to his forces made the French call him "Napoleon of the Sudan",yet treachery played a big role in defeating this Muslem leader at the end. Although militarily he failed, yet had other great achievements: spreading Islam among pagan tribes and correcting Islam among pagan tribes and correcting Islamic creed among Muslims in Nigeria.